

مَرْيَمٌ

عناصر الموضوع

٣٥٦	التعريف بمریم عليها السلام
٣٥٧	مواضع القصة في القرآن
٣٦٠	أم مریم
٣٦٣	كفالۃ زکریا عليه السلام
٣٦٥	اصطفاء الله تعالى لمريم
٣٦٨	بشرة مریم
٣٧٤	حمل مریم بعیسیٰ عليهما السلام
٣٧٧	اتهام اليهود لمريم
٣٨١	نبوة مریم عليها السلام
٣٨٣	ضلال بعض طوائف النصارى في مریم
٣٨٥	الدروس المستفادة من قصة مریم

التعريف بمريم عليها السلام

هي مريم بن عمران، وهو من نسل داود عليه السلام، ويرجع أصله إلى إبراهيم عليه السلام، وكان عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل في زمانه^(١). وكان رجلاً صالحًا، وكانت له زوجة صالحة طيبة ظاهرة خيرة نقية وفيه مطيعة لزوجها، ومطيعة لربها، «واختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض»^(٢).

وذكر ابن كثير نقلاً عن ابن عساكر نسب مريم إلى داود عليه السلام، قال: «ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقوذ بن قبيل من العابدات، وكان ذكرياً نبي ذلك الزمان زوج اخت مريم أشياع في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع، فالله أعلم»^(٣).
 قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَّ أَدَمَ وَنُوحًا وَمَا لِإِبْرَاهِيمَ وَمَا لِأَبْرَاهِيمَ وَمَا لِعُمَرَ وَمَا لِعُمَرَ وَمَا لِالْمُتَّكِمِينَ ۚ﴾ ذُرْيَةٌ
 بَعْضُهَا مِنْ بَقِيرٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

هاتان الآيتان الكريمتان تمهد للحديث عن مريم رحمها الله، وابنها نبي الله عيسى عليه السلام، وبيان أنه بشر رسول خلقه الله -عز وجل- من أم دون أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ومن غير أم. وفي ذلك رد على النصارى الذين زعموا كذباً وزوراً أن عيسى إله وابن إله، وهاتان الآيتان الكريمتان جزء من الآيات التي نزلت لترد على كثير من مزاعم النصارى، وذلك لأن وفداً من نصارى نجران جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المدينة فأحسن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استقبالهم وأكرم نزل لهم ودار حوار بينه وبينهم أقام فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حججاً ظاهرة وأدلة دامجة تدحض مزاعمهم وتدل على فساد معتقداتهم، وأنزل الله تعالى في هذا الشأن صدر سورة آل عمران^(٤).

وآل عمران من الذين اصطفاهم الله، وهم من آل إبراهيم، وخصصوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفاً وتكريماً، وتمهيداً للحديث عنهم بشيء من التفصيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ١ / ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق / ١ / ٣٥٨.

(٣) البداية والنهاية / ٢ / ٥٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ١ / ٣٦٨، السيرة النبوية، ابن هشام / ٢ / ١٥٨.

مواقع القصة في القرآن

وردت قصة مريم الصديقة رضي الله عنها في سور كثيرة ولمناسبات متعددة ذكر منها ما يلي:

في سورة آل عمران: ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنه **بَشَرٌ رَسُولٌ** خلقه الله -عز وجل- من غير أب، كما خلق آدم من غير أب ولا أم.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثْلَ إِادَمَ حَلَقَتْهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

[آل عمران: ٥٩].

وعيسى عليه السلام فرع طيب من شجرة طيبة مباركة، فأمه مريم رضي الله عنها خير نساء العالمين، اصطفاها الله تعالى وظهرها وأثرها وأنعم عليها بنعم كثيرة وأكرمها بكرامات ظاهرة، وأمها امرأة صالحة وفية تقية، نذرت حملها لله تعالى محررا فقبل الله منها نذرها.

وأبوها عمران -عليه السلام- العابد والجبر الزاهد صاحب المكانة السامية في قلوب العباد المخلصين الذين تسابقوا وتنافسوا على كفالة مريم -رضي الله عنها- تقربا إلى الله تعالى، ووفاء وعرفانا وبرا وإحسانا إلى معلمهم وإمامهم عمران عليه السلام الذي مات دون أن تكتحل عيناه بروية ابنته مريم رضي الله عنها، التي خلدت ذكره في العالمين، وسميت هذه السورة بهذا الاسم تكريماً لعمران عليه السلام ولأصله الظاهر ولذريته الصالحة الطيبة. ويأتي ذكر جانب آخر من قصة مريم رضي الله عنها في سورة تحمل اسمها تكريماً لها وهي سورة مريم التي ورد فيها الحديث عن مجيء جبريل -عليه السلام- لها في صورة بشرية وهي في خلوتها تعبد الله عز وجل، واستعاذهما بالله -تعالى- منه، وإخباره إياها بحقيقة و مهمته التي كلفه الله بها والتي جاء من أجلها، وتعجبها من تلك البشارة العجيبة وجواب جبريل -عليه السلام- على استفهمها التعجيبي، ونفعه فيها وحملها عيسى عليه السلام ومدة الحمل وساعة المخاض، تلك الساعة العصيبة العسيرة التي مرت بمريم النذيرة، والتي تمنت الموت من شدة ما مر بها، ومولد عيسى عليه السلام، وما صحبه من رحمات ونفحات وإرهاصات، وقدوم مريم إلى قومها ومعها ولیدها عيسى عليه السلام و موقفهم من ذلك ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد.

وتأتي إشارة لمريم في سورة المائدة فيها منقبة عظيمة لها.

قال تعالى: ﴿مَا أَمْسِيَتْ أَبْنَى مَرِيمَ إِلَّا رَسُولٌ فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ وَأُمُّهُ صِدِيقَةٌ كَمَا يَاكُشَّلَانَ الظَّعَامَ أَنْظَرَ كَيْفَ نَبَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّ يُؤْكَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ذكر الله تعالى صفة كريمة من صفات مريم وهي الصدق، والصديقية مقام من أسمى المقامات، فالنبوة أعظم درجات الكمال في الرجال، والصديقية تأتي في المرتبة الثانية بعد النبوة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَالْأَصْدِيقَيْنَ وَالْأَشْهَدَاءِ وَالصَّابِرِينَ وَحَسْنَ أَوْلَائِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي سورة الأنبياء يرد ذكرها رضي الله عنها وابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بأنبيائه وأصفيفائه.

قال تعالى: ﴿وَالَّقِيلُ أَحْسَنَتْ فَرَجَمَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَكْلَمَيْنِ﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال صاحب الظلال: «ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عيسى عليه السلام، وقد جاءت تبعا له في السياق، وإنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها: ﴿وَالَّقِيلُ أَحْسَنَتْ فَرَجَمَهَا﴾ أحسنته فصانته من كل مباشرة والإحسان يطلق عادة على الزواج بالتبعية؛ لأن الزواج يُحَصَّنُ من الواقع في الفاحشة، أما هنا فيذكر في معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود» ^(١).

كما يأتي ذكرها رضي الله عنها في سورة المؤمنون مع ابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن رحمة الله بأنبيائه وعناته بهم وحفظه لهم.

قال تعالى: ﴿وَحَلَّنَا أَبْنَى مَرِيمَ وَأُمَّهَ مَائِيَةً وَمَا وَتَهُمَا إِلَّا يُرَوِّقُ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

جعلهما الله آية للناس تدل على قدرته تعالى ورعايته لأنبيائه وأوليائه، وأوأهاما إلى **رَوْقٍ**: مكان مرتفع من الأرض، **ذَاتَ قَرَارٍ** أي: مستوى وصالحة للعيش عليها وذات خصي، وماء طيب جاري تراه العيون، وهو بيت المقدس ^(٢).
ويتكرر ذكرها أيضا في سورة التحرير مع آسية بنت مزاحم كمثل طيب ونموذج رائع،

(١) في ظلال القرآن /٤ /٢٣٩٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير /١ /٣٦٨.

وصورة مشرقة متألقة للمرأة الصالحة الصادقة المؤمنة المحسنة التقية الندية، بعد أن ضرب الله تعالى مثلاً للمرأة الكافرة فيكون ذكرها وقبلها آسية رضي الله عنهم مسك الختام لهذه السورة الكريمة التي استفتحت بالحديث عن أمهات المؤمنين أزواجه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٍ نُوحَ وَأَمْرَاتٍ لُّوطٍ كَانَاتَا تَحْمِلْنَ عَبْدَيْنَ مِنْ عِبَادِنَا صَلَّيْنَ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يَعْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ أَنَّهُ شَيْئًا وَقَيْلَ أَذْخَلَ أَنَّارَ مَعَ الْأَذْخَلِينَ ⑩ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ مَاءَمُوا أَمْرَاتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ قَاتَ رَبِّ ابْنٍ لِّيَعْنَدَكَ يَتِيًّا فِي الْجَنَّةِ وَيَخْتِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلَهُ وَيَخْتِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪ وَمِنْ مَأْبَتِ عَمَرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكَتَبْهُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ⑫﴾ [التحريم: ١٠]

. [١٢ -

أم مريم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأٌ عِمْرَانَ رَبِّيْ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُهَرَّجًا فَتَقْبَلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَنْعَمُ الْعَلِيُّسُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأٌ عِمْرَانَ رَبِّيْ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُهَرَّجًا فَتَقْبَلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَنْعَمُ الْعَلِيُّسُ ﴾ ٣٥ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّيْ إِنِّي وَضَعَتْهَا أُنْتَ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيَسَ الَّذِي كَانَ لِأَنْفُسِي وَلَيَسَ سَمِعَتْهَا مَرِيمَةً فَلَيَسَ أَعْيَدُهَا يُلْكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ٣٦ ﴿فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا يَقْبُلُ حَسَنَ وَأَنْبَتَهَا بَيْتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧ - ٣٥].

بدأت قصة مريم رضي الله عنها في بيت صالح هو بيت أبيها عمران ذلك التقى النبي الذي أكرمه الله عز وجل بزوجة طيبة صالحة، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ومن ثمراته الطيبة: مريم رضي الله عنها، رببة بيت الطهر والعفاف وسليلة آل العلم والعبادة.

وكانت امرأة عمران رضي الله عنها تدعوا المولى عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا تقر به عينها وتبتهج به نفسها وينشرح له صدرها، فلما تحرك الحمل في أحشائتها نذرت ما في بطنه محرراً أي خالصا لوجه الله تعالى منقطعها لعبادته وخدمة بيت المقدس، أملا ورجاء أن توب ذكرا يحمل اسم زوجها عمران ويخلقه في الفضل.

طلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولاً حسناً، فهو تعالى سميع لقولها مجيب لدعائها وتصرعها عالم

أولاً: حملها ونذرها

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأٌ عِمْرَانَ رَبِّيْ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُهَرَّجًا فَتَقْبَلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَنْعَمُ الْعَلِيُّسُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

أجاب الله دعاء امرأة عمران، تلك المرأة الصابرة الصادقة الصالحة التي توجهت إلى المولى عز وجل بالدعاء والرجاء أن يرزقها الولد الصالح، فاستجاب الله لها، وأتتها سؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائتها، فأشرقت الدنيا في عينها وغمرتها وزوجها نشوة من السرور.

فالبنون قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وبهجة النفوس وريحانة القلوب وفلذات الأكباد. ولكن لم تطل فرحتها ولم تتم بهجتها فلقد مات زوجها عمران عليه السلام، وقد كانت تمنى بقاء زوجها حتى ينعم برؤية فلذة كبده وتكتحل عيناه برؤيه ولده، ويشاركتها فرحتها، ولكن قضاء الله حل، ولقد استقبلت هذه الأمور بالصبر الجميل، والإيمان واليقين، فلما تحرك الحمل في أحشائتها نذرت ما في بطنه محرراً أي خالصا لوجه الله تعالى وأي الخالص من الشوائب، وطلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولاً حسناً، فهو تعالى سميع لقولها مجيب لدعائها وتصرعها عالم

﴿وَلَيْسَ الدَّكَرُ كَالْأَنْثَى﴾: قالت امرأة

عمران معتذرة لربها: وليس الذكر الذي طلبته نذرته كالأنثى التي وضعتها، فالذكر يتمكن من الوفاء بالنذر بخدمته في المسجد، أما الأنثى فإنها لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر، كما أنه يتعريها من الأحوال ما يحولُ بينها وبين البقاء في المسجد، وذلك حين يأتيها الحيض، أو النفاس عند الولادة، فضلاً عن تفاوتهما في القوة والجلد.

﴿وَإِنِّي سَمِّيَّتُهَا مَرِيمَة﴾ انفردت امرأة

عمران بتسمية مريم وما ذلك إلا لوفاة زوجها عمران عليه السلام أثناء حملها، وسمتها مريم تقرباً إلى المولى عز وجل بهذه التسمية الحسنة، فمريم -رضي الله عنها- تعنى في لغتهم: العابدة والخادمة، وللاسم علاقة بالمعنى، فهي ترجو أن يكون لها حظ وافر من اسمها^(٣).

وفي هذه التسمية إشارة إلى عزمنها على إمضاء نذرها، ورجائها أن يكون عند الله مقبولاً.

﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا يَلْكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَنِ﴾

تضرعت امرأة عمران لربها أن

(٣) قال القاسمي في محسن التأويل ٤/٩١:

قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاء وتفاؤلاً أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها.

وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/٥٤١:

(مريم) بالسريانية تعني: الخادم.

بحالها ونبيتها^(١).

ثانيًا: وضعها ووفاؤها بنذرها

ومضت الأيام وجاءت ساعة الوضع، ووضعت امرأة عمران ولیدها فاذ به أثى، فتبرادر إلى الاعتذار لربها، لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكراً لتهبه لخدمة بيت المقدس كما نذرت، والأثى لا تصلح لهذه المهمة، كما جرت العادة بذلك، فتوجهت امرأة عمران إلى ربها قائلة: **﴿وَرَبِّيَ وَصَعْنَتَهَا أَنْقَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعَّبَتْ وَلَيْسَ الدَّكَرُ كَالْأَنْثَى﴾**

[آل عمران: ٣٦].

قال ابن كثير: « وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم^(٢) ».

أدركت امرأة عمران أن لله في ذلك حكمة يعلمهها، فالله -عز وجل- يدبر أحوال الخلق وفق قدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ولعل هذه الأنثى عند الله خير من الذكر؛ لأن ما يفعله رب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه، فهو سبحانه لا يقع في سلطانه إلا ما أراده، لكن المولى جل وعلا يعلم مكانة هذه المولودة وقدرها، فهي سيدة نساء العالمين، اصطفاها الله وطهرها، واجتبها وأثرها، وجعلها وابنها آية للعالمين.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/٢٦.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٤٩.

والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تتضرر هذه الوليدة السعيدة، حيث تقبلها ربها قبولاً حسناً، وأنبتها نباتاً حسناً حتى نمت وترعرعت وأزهرت وأينعت، وأثمرت كلمة من الله وروحاً منه هو عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، الذي جعله الله وأمه آية للعالمين.

قال عز وجل: **﴿فَتَقْبِلُهَا رَبُّهَا يُقْبِلُهُ حَسَنٌ﴾** والفاء هنا للتعليق، لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائهما وسرعة تحقيقه لرجائهما، فهو عز وجل من المؤمن قريب ولدعائه مجيب.

وقال **﴿يُقْبِلُ﴾** ولم يقل (يتقبل)؛ للجمع بين الأمرين: التقبل الذي هو الترقى في القبول، والقبول الذي يقتضي الرضا والإثابة **﴾ۚ﴾**، هذا مع معهود القرآن الكريم في عنوية الألفاظ وسلامتها.

﴿وَأَنْبَتَهَا بَيْتًا حَسَنًا﴾: مع قبولها عند الله قبولاً حسناً، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً، فجمعت بين كمال الخلقة وجمال الخلق، وحسن التربية.

يقبل ولديتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى عز وجل خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وأحكم الحكمين.

وسر تكرار **﴿إِنَّ﴾** هنا للتأكيد، ولتغير المخبر به، ولأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها، فأكدت في كلامها هذا إظهاراً لرضاهما بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة **﴾ۖ﴾** ولقد جاءت أفعال ثلاثة بصيغة الماضي **﴿نَذَرْتُ﴾** **﴿وَضَعَتْ﴾**، **﴿سَيَّئْتُ﴾** للدلالة على التتحقق والثبت وفى التعبير بـ **﴿نَذَرْتُ﴾** و **﴿سَيَّئْتُ﴾** ما يفيد عزمها ومضيها على الوفاء بما نذرت به بلا تردد ولا تراجع، وفي التعبير بـ **﴿وَإِنِّي أَعِدُّهَا﴾** ما يدل على التجدد والاستمرار المستفاد من التعبير بالفعل المضارع، لأن الاستعادة مطلوبة في كل وقت وحين **﴾ۖ﴾**.

ثالثاً: تقبل الله تعالى نذرها

بعد هذه المناجاة الصادقة، والدعوات الخالصة من امرأة عمران رضي الله عنها والتي طلبت من ربها أن يتقبل منها نذيرها، وأن يبارك لها في ولديتها ويعينها وذريتها من الشيطان الرجيم، أجاب الله لها الدعاء وحقق لها الرجاء، وكانت الإجابات الإلهية

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ٢٣٤.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣ / ١٣٦.

(٣) محسن التأويل، القاسمي ٤ / ٩٢.

تكتحل عيناه ببرؤية ابنته، وحرضاً على هذا الشرف، ووفاء للمعلم والمربي والمصلح، وكان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصار على كفالة مريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقِرْبَىٰ تُوحِيدُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَكْفُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيْمَهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ﴾ (١١) فلقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولما لم تجتمع لهم كلمة، ولم يتفق لهم رأي، فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه المكرمة، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقتروا فيما بينهم، فمن فاز في القرعة فقد فاز بكفالة مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَكْفُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيْمَهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ﴾، قال ابن عباس اقترعوا فجرت الأقلام مع الجريمة وعال قلم زكريا الجريمة فكفلها زكريا (١).

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَاٰ الْمُحَرَّابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه، وهذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات

كفالة زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿فَنَقْبَلَهَا رَبُّهَا يَقْبُلُ حَسَنًا وَأَنْبَتَهَا بَنَاتًا حَسَنًا وَكَلَّهَا زَكَرِيَاٰ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَاٰ الْمُحَرَّابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَكْفُمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ مُوْمَنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْدُقُ مَنْ يَشَاءُهُ بِغَرِيرِ حِسَابٍ ﴾٢﴾ هَذَا لَكَ دَهَانَ زَكَرِيَاٰ رِيدَهُ قَالَ رَبِّيْهِ حَبَّ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْيَةٌ طَيْبَةٌ إِنَّكَ سَعَيْتَ الْمُعْلَمَ ﴾٣﴾ فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَالَمْ يَسْأَلُ فِي الْمُحَرَّابِ أَنَّ اللَّهَ يَبْشِّرُكَ بِيَعْمَنِ مُصَدَّقًا بِكَلْمَكَوْنَ أَللَّهُ وَسَيِّدُنَا وَحَصْمُوْنَا وَتَبِيَّنَا مِنَ الْمَسْكِلِعِينَ ﴾٤﴾ قَالَ رَبِّيْهِ أَنَّ يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ يَلْعَفِنِ الْكَبِيرَ وَأَمْرَأَقَ حَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾٥﴾ قَالَ رَبِّيْهِ أَجْعَلْ لِي مَا يَأْتِيَهُ قَالَ مَا يَأْتِيَكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَّنَا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَيَّغَ إِلَيْهِنِي وَإِلَيْهِنِكَ ﴾٦﴾ [آل عمران: ٤١-٣٧].

قيض الله تعالى لمريم نبيه زكريا عليه السلام ليتعهد بها ويرعاها، ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة، وقد تمت تلك الكفالة بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تناهى الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كل يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذلك المقام، فمريم -رضي الله عنها- بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن

ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة هادئة هانئة، ولقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك البنتية صاحبة المنزلة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سبباً مباشرًا في توجه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

﴿هَنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت الذي رأى فيه الفاكهة في غير حينها، تعلق رجاؤه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه، تقر به عينه، وينشرح به صدره **﴿فَنَادَاهُ الْمَلِئَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِسَعْيِ مُصْدِقًا بِكَلْمَكَةٍ مِّنَ اللَّوَّوَسِيدَا وَحَصُورًا وَنَيْسًا مِّنَ الصَّلَاجِينَ﴾** [آل عمران: ٣٩]

. [٣٩]

الرزق الرياني يشمل غذاء الأجساد وغذاء الأرواح، فهو يشمل الطعام والشراب، وغير ذلك من ضرورات الحياة، من كل ما يتطلع به الإنسان وما يحصله، كما أنه يشمل: غذاء الأرواح من علم وغيره، فهو أعم من الفاكهة في غير حينها المعهود؛ ولذلك جاء بصيغة التنكير التي تفيد التعظيم والتعميم والتکثير، فهو رزق حسي ورزق معنوي، وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله لمريم، وتمهيداً للأية العجيبة التي تتظرها، وهي خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فالكرامة تكريمه لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها، حتى تكون مهيأة لما يتضررها من كرامة. **﴿قَالَ يَنْتَرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مَنْ عَنْ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِتَنْكِيرِ حِسَابِ﴾**.

سأل زكريا مريم متعجبًا ومنبهراً بما يقع لها، سألاها وقال لها من أين لك هذا؟ وكيف وصل إليك ولا يدخل عليك غيري؟ **﴿قَالَتْ هُوَ مَنْ عَنْ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِتَنْكِيرِ حِسَابِ﴾** فعطاء الله ممدود، لا تحدده حدود، ولا تقيده قيود، وفضل الله عظيم وخزاناته ملأى، فالله سبحانه يعطي العبد من حيث لا يحتسب العبد.

﴿هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّي هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْيَةً طَيْبَةً إِنَّكَ سَيِّعُ الدُّعَاءِ﴾: نبي الله زكريا عليه السلام بلغ من الكبر عتياً، وزوجه كانت لا تلد، فأسلمت أمرها لله

خاصاً بأن أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والأية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أب ليكون آية للعالمين^(١).

وطهرك: من الأدناس والأقدار، ونزعك عن الأخلاق الذميمة والطبع الرديئة بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، «وَاصْطَفَنَاكَ عَلَىٰ فِسْكَةِ الْعَالَمِينَ»: اصطفاء بعد اصطفاء، والاصطفاء الثاني هو أنه عز وجل أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والأية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أب ليكون آية للعالمين^(٢).

قال تعالى: «وَحَعَنَا إِنَّ مَرْيَمَ وَأُمَّهَ مَائِيَةً وَمَا أَوْتَنَاهُمَا إِلَّا رَبْوَقَ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» [المؤمنون: ٥٠].

ويقىل: إن الاصطفاء الثاني هو عين الأول، وكرر للتاكيد وبيان من اصطفاها عليهم، ذكر ذلك الألوسي، وقال: ولعل الأول أولى؛ لـما أَنَّ التأسيس خير من التأكيد. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

^(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤٣/٨، روح البيان، إسماعيل حقي ١/٣٢، روح المعاني، الألوسي ٣/١٥٥، محسن التأويل، القاسمي ٩٦/٤.

^(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤٣/٨ روح المعاني، الألوسي ٣/١٥٥، محسن التأويل، القاسمي ٩٦/٤.

اصطفاء الله تعالى لمريم

قال تعالى: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَتَرَسَّمُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَاكَ وَطَهَرَكَ وَاصْطَفَنَاكَ عَلَىٰ فِسْكَةِ الْعَالَمِينَ» ^{٤٤} يَتَرَسَّمُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ وَاسْتَجَدَيْ وَأَرَكَيْ مَعَ الرَّكَعَيْنَ ^{٤٥} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقَيْبِ تُؤْجِهُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَلْقَوْنَ أَقْلَدَهُمْ أَيْمَنَهُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِّشُونَ» ^{٤٦} [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

عوداً إلى مريم رحمها الله وإلى اصطفاء الله، عز وجل لها، (واذ) معطوف على ^{إِذْ} **قَالَتِ امْرَأٌ عُمَرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ** ^{٤٧} والمعنى: اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران رحمها الله واذكر أيضاً ما قالته الملائكة لمريم رحمها الله من بشارات، ففي هذه القصة عبر وعظات ينبغي أن يتذكرها المؤمن، ويستفيد منها، ويدرك الناس بها.

والاصطفاء: الاختيار والانتقاء والتصفية. ومنعنى اصطفاء الله تعالى مريم رضي الله عنها: جعلها من بيت صالح، وقبلها قبولاً حسناً، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل زكريا عليه السلام لها كافلاً، وأجرى الكرامة على يديها إكراماً لها وإنساناً إليها، وطهرها من كل سوء، طهرها بالإيمان والطاعة والتقى والصلاح، والحياء والعفاف، فهي رضي الله عنها العفيفة الشريفة الحية الندية الراضية المرضية، واصطفاها تعالى اصطفاء

وتكرير النداء **﴿يَعْمَلُونَ﴾** للتنبيه، والإشارة إلى أهمية ما يرد في ثناءه وفيه تكريم لها.

وقوله تعالى: **﴿وَاسْجُدُوا وَأَنْكِحُوا مَعَ الْأَزْكِرَتِ﴾**: إن حملنا القنوت على مطلق الطاعة والعبادة، فالسجود والركوع من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية والاهتمام، وإن حملنا القنوت على القيام، فالركوع والسجود من تتمة الأركان؛ لأن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود، وإن حملنا القنوت على الإخلاص وعلى الخشوع والخضوع، فالركوع والسجود من الأفعال الظاهرة، والإخلاص والخشوع والخضوع من الأفعال الباطنة، ولا تستقيم العبادة إلا بصحبة الظاهر وصلاح الباطن.

وفي هذا توجيه لمريم رضي الله عنها أن تجمع بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح، حتى يستوي الظاهر بالباطن، ويستقيم الاعتقاد مع القول والعمل.

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم رضي الله عنها أن تجتهد في العبادة وأن تداوم على الطاعة وتتطيل في القنوت، وتكثر السجود وترکع مع الراكعين؛ حتى تزداد قرباً من رب العالمين.

وجاء التعبير **﴿وَأَنْكِحُوا مَعَ الْأَزْكِرَتِ﴾**
ولم يقل مع الراکعات «لأن هذا الجمع أعم، إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل

(حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وأسمية ابنة فرعون، وخدیجة بنت خویلد، وفاطمة بنت محمد).^(١)

مقتضيات الاصطفاء: قال تعالى: **﴿يَعْمَلُونَ أَفْتَنِي لِرِبِّكَ وَاسْجُدُوا وَأَنْكِحُوا مَعَ الْأَزْكِرَتِ﴾**.

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم: يأمرها سبحانه - عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها - بأن تجتهد في العبادة شكرًا لله عز وجل على هذه النعم والمواهب؛ ومواصلة للسير في طريق الهدى والصلاح.

قال الرازى: «لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله تعالى، أوجب عليها مزيداً من الطاعات شكرًا لتلك النعم السننية».^(٢)

والقنوت لزوم الطاعة والعبادة والاجتهد فيها مع الإخلاص والخشوع والخضوع لله رب العالمين.^(٣)

وقال الألوسي: «والتعرض لعنوان الربوية؛ للإشارة بعلة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه».^(٤)

(١) أخرجه الترمذى في سنته، أبواب المناقب، باب فضل خديجة، ٥ / ٦٦٠، رقم ٣٨٧٨.

قال الترمذى: حديث صحيح.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازى، ٨ / ٤٤.

(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٤١٣.

(٤) روح المعانى، الألوسي، ٣ / ١٥٨.

ما يفيد تجاهل المسيح لمريم وإخوتها
وفيه: «وجاء حيث إخوته وأمه ووقفوا
خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه، وكان
الجميع جالسا حوله، فقالوا له: هوذا
أمك وإخوتك خارجا يطلبونك ؟
فأجابهم قائلا من أمي وإخوتي ؟ ثم
نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها
أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله
هو أخي وأختي وأمي » وورد في
إنجيل لوقا إصلاح ٢٠، ٨/١٩ نفس
الموقف ويلاحظ من كلمة: من أمي
وإخوتي ؟ مدى تجاهله لأمه وإخوتها
وضيقه بهم

في إنجليل مرقس إصلاح ٦: ٢/٥:
«ولما كان السبت ابتدأ يعلم في
المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا
قائلين من أين لهذا هذه؟ وما هذه
الحكمة التي أعطيت له؟ ... أليس
هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب
ويهودا وسمعان؟ فكانوا يعثرون به،
فقال لهم يسوع: ليسنبي بلا كرامة
إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته، ولم
يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة
وفي عرس قانا الجليل كما ورد في
إنجيل يوحنا ما يدل على انفعال المسيح
على أمه وفيه». وفي اليوم الثالث كان
عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع

التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي»^(١).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوحِدُ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِ إِذَا يُكْثُرُ أَقْلَمَهُمْ
إِيَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذَا
يَخْتَصِّمُونَ﴾: ذلك: إشارة إلى ما سبق ذكره
من أخبار عن اصطفاء الله للأنبياء وخبر
امرأة عمران وابتها، وخبر زكريا ويحيى
عليهما السلام، وغير ذلك من الأخبار التي
جاءت بها السورة الكريمة.

إن كثيراً من الأحداث الهامة في حياة
مريم رضي الله عنها لم نعرفها إلا عن طريق
القرآن الكريم، من ذلك حديث القرآن عن
حمل أمها بها ونذرها للعبادة، وتناسف
الأخبار على كفالتها، وكفالة زكريا لها،
واصطفاء الله تعالى لها، وغير ذلك من
تأثيرها التي لم نعرفها إلا عن طريق القرآن،
إذ لم يرد لهذه الأحداث ذكر في العهد
الجديد.

ولم يرد في «العهد الجديد» أيضاً كلام
يعسى عليه السلام وهو في المهد، مع كونه
آية عظيمة وحجة ساطعة على براءة مريم
رضي الله عنها مما ادعاه اليهود.

بل إن أغلب الذي في العهد الجديد عن
مريم فيه تقليل من شأنها وتتجاهل لكراماتها،
من ذلك على سبيل المثال:

● في إنجليل مرقس إصلاح ٣: ٣١/٣٥

(١) روح المعاني، الألوسي، ٣/١٥٨.

بشرة مريم

جاءت البشارات في سورتين: سورة آل عمران وسورة مريم، جاء الحديث عن البشارة مسهيًا في سورة آل عمران، وجاءت سورة مريم مفصلة لما لابس البشارة وما أعقبها، وفيما يلي أتحدث عن البشارة في السورتين الكريمتين:

أولاً: البشارة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿إِذَا قَاتَتِ الْمَلَائِكَةُ يَنْتَهِيُّمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكُمْ بِكَلْمَةٍ مِّنْهُ أَسْمَهُ التَّسْبِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهْمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ۚ وَيُشَكِّلُمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَنَّهْلًا وَمِنَ الْمُصْنَعِينَ ۖ﴾ ^{٤٥} قَالَتْ رَبِّي أَنَّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَرٌ يَسْتَشْفِي بِشَرٍّ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّلَ أَنْرًا فَلَئِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ﴾ ^{٤٦} [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم رضي الله عنها، وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة، وأوصاها بالإخلاص والخشوع والخضوع له سبحانه، تهيأت بذلك مريم رضي الله عنها للمعجزة الكبرى والأية العجيبة، وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة بدون أب. وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الظاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة

هناك، ودعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولمافرغت العمر قال: أم يسوع له: ليس لهم خمر؟ فقال: لها ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأت ساعتي بعد» يوحنا ٢: ٥ / ١ . فهل يتفق هذا مع أخلاق النبوة؟ إن كل هذه الأخبار كاذبة خاطئة، والمسيح عليه السلام كان بارًّا بأمه رفيقاً بها محسناً إليها.

قال تعالى مبيناً ما قاله عيسى عليه السلام عن نفسه وهو في المهد. إن ما ورد في الأنجليل في شأن عيسى عليه السلام وفي شأن مريم متضارب متناقض، بعيد عن الحقيقة، منحرف عن الصواب، حتى شراح الأنجليل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأنجليل، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضية مدسوسية ومكذوبة، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام.

المبارك الذى كانت الأنبياء من قبله تمسح
به، وهو زيت طيب الرائحة.

وَقَالَ: الْمَسِيحُ يَعْنِي: مِنْ مَسْحِ اللَّهِ؛
أَيْ: خَلْقَهُ خَلْقًا حَسْنًا مَبَارِكًا، كَمَا يَقُولُونَ
بِهِ مَسْحَةُ جَمَالٍ، وَالْمَسِيحُ: مِنْ مَسْخِ اللَّهِ،
أَيْ: خَلْقَهُ فِي صُورَةِ قَبِيْحَةٍ وَجَعَلَهُ مَلْعُونًا^(٤).
وَقَالَ: لِكُثُرَةِ سِيَاحَتِهِ، أَيْ: سِيرَهُ فِي
الْأَرْضِ.

وَقَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ مَسِيحَ الْقَدْمَيْنِ لَا أَخْمَصَ
لَهُمَا^(٥).

وَقَالَ: الْمَسِيحُ يَعْنِي: الْمَبَارِكُ، أَوْ لِأَنَّهُ
كَانَ يَمْسِحُ بِيَدِهِ الْمَبَارِكَةَ عَلَى الْمَرِيضِ
فَيُشْفَى بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إِشارةٌ
إِلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيُولَدُ مِنْ غَيْرِ
أَبٍ، لِأَنَّهُ لَوْلَدَ مِنْ أَبٍ لَصَرَحَ بِاسْمِهِ بِدَلَّا
مِنَ التَّصْرِيحِ بِاسْمِ أَمِهِ.

وَالْوَجِيهُ: ذُو الْجَاهِ وَالشَّرْفِ وَالْقَدْرِ.
وَقَالَ: الْكَرِيمُ عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُ فَلَا يَرِدُ
لَكْرَمُ وَجْهَهُ عَنْهُ، خَلَافٌ مِنْ يَبْذِلُ وَجْهَهُ
لِلْمَسَأَلَةِ فَيُرِدُ، وَوَجَاهَتِهِ فِي الدُّنْيَا بِالْبُنْوَةِ
وَالتَّقْدِيمِ عَلَى النَّاسِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِقَبْوِلِ
شَفَاعَتِهِ وَعُلُوِّ دَرْجَتِهِ.

وَقَالَ: وَجَاهَتِهِ فِي الدُّنْيَا بِقَبْوِلِ دُعَائِهِ
بِإِحْيَا الْمَوْتَىٰ وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي
٨٨ / ٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ١. ٣٦٣.

الْعَظِيمَةِ الشَّانِ.

«وَالْمَرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ هُنَّ جَبَرِيلُ، وَالْجَمْعُ
لِمَا ذَكَرْنَا قَبْلَ مِنَ التَّعْظِيمِ»^(١).

وَلَا مَانِعٌ مِنْ تَكْرَارِ الْبَشَارَةِ، بِشَرْتِهَا
الْمَلَائِكَةُ أُولَآ وَعَلَى رَأْسِهِمْ جَبَرِيلُ، ثُمَّ
تَمْثِيلُ جَبَرِيلٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ بَشَرِيَّةٍ
فَأَعْدَادُ بَشَارَتِهَا فَأَعْدَادُ تَعْجِبَهَا؛ زِيادةً فِي
الْأَطْمَنَانِ وَالْيَقِينِ وَاسْتِفْسَارًا عَنْ كِيفِيَّةِ
تَحْقِيقِ هَذِهِ الْبَشَارَةِ الْعَجِيْبَةِ.

سُمِيَ الْمَسِيحُ كَلْمَةُ اللَّهِ لِأَنَّهُ مُوْجَدٌ
بِكَلْمَةِ كَنْ، وَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُوْجَدٌ بِأَمْرِ
اللهِ وَكَلْمَتِهِ، وَإِنَّمَا خُصُّ بِهَذَا الْأَسْمَاءِ لِتَتْنِيْبِهِ
بِهَذِهِ الْآيَةِ الْعَجِيْبَةِ ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل
عُمَرَانَ: ٤٧].

ذَكَرَ ذَلِكَ الْإِمَامُ الْأَلوَسِيُّ، وَرَجَحَ أَنَّ
الْمَسِيحَ سُمِيَ بِكَلْمَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ مِنْ غَيْرِ
أَبٍ بِكَلْمَةِ كَنْ عَلَى خَلَافِ أَفْرَادِ بْنِ آدَمَ،
فَكَانَ تَأْثِيرُ الْكَلْمَةِ فِي حَقِّهِ أَظْهَرَ وَأَكْمَلَ^(٢).
وَمِنْعِنِي الْمَسِيحِ: الْمَبَارِكُ^(٣).

وَقَالَ: سُمِيَ الْمَسِيحُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسِحُ
عَلَى عَيْنِ الْأَعْمَى فَيُرِتَدُ بِصِيرَاتِهِ بِإِذْنِ اللهِ،
وَبِيَرِئِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ بِإِذْنِ اللهِ.

وَقَالَ: يَعْنِي الصَّدِيقِ.

وَقَالَ: سُمِيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَمْسُوحٌ بِالرِّزْيَتِ

(١) روح البیان، إسماعیل حقی ٢/٣٤.

(٢) انظر: روح المعانی، الألوسي ٣/١٦٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٣.

إله، والإله لا يمر بهذه التقلبات، ولا يتنتقل من حال إلى حال، والمسيح سيتنتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة، والمتنتقل من حال إلى حال حادث ومتغير، والحدث والتغيير يتنافي مع صفة الألوهية، ومن فوائد كلامه في المهد: إثبات براءة أمه، وبيان عبوديته لله ونبوته وبركته وبره بأمه، ونفي كونه جباراً شقياً، فهو بـ^ررحيم رفيق حليم ٠
قالت مريم رحمها الله متعجبة من هذه البشرة العجيبة، وتسائلة عن كيفية وقوعها: **﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَّدَ يَسْتَخْيَطُ بَشَرٌ﴾** وجاءها الجواب: **﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَأْتِي مَلَائِكَةٌ إِذَا قَضَى أَنْزَلَ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**.

قال صاحب الظلال: «وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول أفترهم للأسباب والمسبيات الظاهرة، لعلهم القليل، ومالفهم المحدود: **﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَأْتِي إِذَا قَضَى أَنْزَلَ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان إلى نفسه يسألها في عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطري !!

وهكذا القرآن الكريم ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب، وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدتها الفلسفات المعقدة،

وقيل: بسبب أنه كان مبرعاً من العيوب التي افتروها اليهود عليه، وفي الآخرة ما تقدم ^(١).

وتعرض له اليهود بالأذى والاضطهاد لا ينقص من قدره ولا يقدح في وجاهته ومترتبه، فالأنبياء هم أشرف خلق الله، وأكرمهم وأعزهم، وقد تعرضوا للأذى والتضييق، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة، وكراهة وإباء، وعزيمة ومضاء، وإيماناً وتسليمًا ويقيناً وثبيتاً ونصرًا ونجاة.

﴿وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ عند الله تعالى وعند الناس بالقبول والإجابة، **﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** كلامه في المهد حين أنطقه الله عز وجل براءة أمه من اتهام اليهود عليهم لعنة الله.

والكهولة في الأربعين. وقيل: ثلاث وثلاثين، والكهل ما اجتمعت قوته وكم شبابه ^(٢)، أما عن كلامه في الكهولة: فقيل: ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لبيان فصاحة كلامه وبلاوغته في المهد وفي الكهولة على السواء، وقيل: إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض في آخر الزمان فيكلم الناس، وقد بلغ سن الكهولة ^(٣).

وقيل: رد على النصارى الذين زعموا أنه

(١) روح المعانى، الألوسى، ١٦٢ / ٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازى، ٥١ / ٨.

(٣) انظر: روح المعانى، الألوسى، ١٦٣ / ٣.

ويفر الأمر في القلوب وفي العقول على
السواء»^(١).
وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه
وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل
عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى
بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد
يعصي آية عجيبة فإن ولادة عيسى آية عجائب.
قال تعالى: **﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَنْ هُمْ إِذْ
أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾**^(٢) **فَأَنْخَذْتَ**
مِنْ دُونِهِمْ جَهَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحًا فَتَمَثَّلَ
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٣) [مرثيم: ١٦-١٧].

اذكر في القرآن الكريم؛ لأن القصص
القرآنى هو الزاد الذى يتزود به المؤمن
في حياته والنور الذى يضيء له الدروب،
ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في
القصص القرأنى والاعتبار به، والاقتباس
من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مرثيم
في هذا السجل الخالد تشريف وتكريم لها.
وقوله تعالى: **﴿إِذْ أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
شَرْقِيًّا﴾** اتجهت إلى شرقى بيت المقدس
لتختف وتخلو للعبادة، ففي الخلوة رياضة
للنفس، وسمو بالروح، وشحذ للهمة،
وصفاء للقلب، وزيادة قرب من المولى عز
وجل.

وإنما جاءها الملك في هذا المكان
الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه
السلام وهو قائم يصلى في المحراب،
حيث البركات والرحمات والنفحات،
﴿فَأَنْخَذْتَ مِنْ دُونِهِمْ جَهَابًا﴾: أي: جعلت

ثُمَّ تمضي الآيات بعد ذلك في سورة
آل عمران لتواصل الحديث عن صفات
المسيح عليه السلام ونعم الله عليه وتأييده
له بالمعجزات التي تدل على نبوته، كما

تدل على بشريته، وعن حقيقة رسالته التي
جاء بها، ويطوي السياق الحديث عن مرثيم
رحمها الله، ويستقل للحديث عن المسيح
ابن مرثيم وعن موقف الناس من دعوته .

ثانية: البشارة في سورة مرثيم:

ورد الحديث عن البشارة ومقدماتها، وما
تبعها في سورة مرثيم.

قال تعالى: **﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَنْ هُمْ إِذْ
أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾**^(٤) **فَأَنْخَذْتَ**
مِنْ دُونِهِمْ جَهَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحًا فَتَمَثَّلَ
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٥) **فَأَلَّا إِنْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ**
كُنْتَ تَقْيَيًا﴾^(٦) **فَأَلَّا إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهْبَ**
لَكِ غُلَمًا رَّكِيَّا﴾^(٧) **فَأَلَّا إِنَّمَا يَكُونُ لِي**
غُلَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُدْ يَغْبَيَا﴾^(٨) **فَأَلَّا**
كَذَّالِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هِينٍ وَلَنْ يَجْعَلَهُ
عَيْنَةً لِلْتَّأْسِ وَرَحْمَةً مِنْهَا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾^(٩)
[مرثيم: ٢١-١٦].

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن
زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى،

(١) في ظلال القرآن ١/٣٩٨.

السوء، فقد شملها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تداركها رحمة الرحمن، وفي الاستعاذه أيضاً استشارة واستنهاض لبوات الرحمة والتقوى في قلب ذلك القادر، فهو إن كان رحيمًا فسوف يرحم ضعفها ووحدتها، وإن كان تقىً فسوف ينصرف عنها ولا يمسهاسوء.

قال أبو العالية : «قد علمت أن التقى ذو نهاية»^(١).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَمْبَلَ لَكَ غَلَّمَازَ كَيْيَا﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفها، ووضح لها أنه ملك من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهرب لها غلاماً زكيّاً، أي غلاماً طاهراً مباركاً «وعبر باسم رب المتقاضي للإحسان لطفاً بها، ولأن هذه السورة مصدراً بالرحمة، ومن أعظم مقاصداتها تعداد النعم على خلص عباده»^(٢).

﴿قَالَتْ أَنَّ يَكُونُ لِي غَلَّمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِغَيْرِهَا﴾: علمت وأيقنت أن هذه البشرة صادقة، وأن الذي بين يديها ملك مرسل من عند الله، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشرة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا

(١) أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح.
انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/١١٥.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٤/٥٢٧.

بينها وبينهم ستراً حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادة، ولا تختلط بالرجال، **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾** جبريل عليه السلام، وسمى عليه السلام روحًا؛ لأن الدين أساسه الوحي، وهو أمينه، فالوحي حياة الدين، كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء.

والإضافة في **﴿رُوحَنَا﴾** للتشريف والتعظيم، وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قبل رب العالمين منزل بأمره، **﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بِشَرَاسَوْنَا﴾**: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتها تقواه، وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تطيق رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقْيَيْنِي﴾: استعاذه رضي الله عنها بربها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفي استعاذه بالله تعالى ما يدل على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها، وشدة حياتها وحسن أدبهما، ولباقيتها وسرعة بديهتها، وفي استعاذه بالرحمن توجه إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها

ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذي يتنظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة، ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم.

في سورة الأنبياء قال المولى عز وجل:

﴿وَالْقَيْمَ أَحْصَنَتْ فِرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَا أَوْجَعَنَّهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِّلْكَلَمِينَ﴾

[الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحرير:

﴿وَنَرِيمَ بَنْتَ عَمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فِرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلْمَتِ رَبِّهَا وَكَتَبْهُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَرِيبَنِ﴾

[التحرير: ١٢].

والآية الأولى في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بالأنبياء وألهم، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل، فنفع فيها لتحمل بولد من غير أب، لتكون وابنها آية للعالمين.

وفي سورة التحرير تلك السورة التي تعالج بعض الأمور التي حدثت في بيت النبوة، بين أمهات المؤمنين، يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغنى عن قرابة الدين، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

ومريم بنت عمران نشأت في بيت صالح، وكانت عفيفة شريفة، مؤمنة صديقة، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين.

عن حملِ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرُّ زواج، وحاشاها أن تكون بغيًا.

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، **﴿قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هُنَّ﴾** فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿وَلَنَجْعَلَهُ مَآيَةً لِلنَّاسِ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل كما قال تعالى **﴿وَحَلَّنَا أَبْنَى مَرِيمَ وَأَتْمَعَهُ مَآيَةً﴾**

[المؤمنون: ٥٠].

﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسلاته عليه السلام، فهو رحمة لمريم؛ لأنها إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها؛ لأنها صارت به أم نبي له وواجهته ومكانته في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن بها، فالأنبياء جميعهم رحمة مهدأة، **﴿وَكَانَتْ أَمْرًا مَقْضِيَّا﴾** أمراً مقدوراً من الله عز وجل ونافذاً فلا رجوع فيه.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفح روح القدس عليه السلام في مريم، وجاء الحديث عن النفح في سورة الأنبياء وسورة التحرير، وفي

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

قال تعالى: **﴿فَحَمَلَتْهُ فَأَنْبَذَتْهُ بِهِ مَكَانًا فَصَيَا﴾** ^(٢١) فَاجاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّفَّلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكَثُنْتْ نَسِيَا

﴿مَنْسِيَا﴾ ^(٢٢) [مريم: ٢٢-٢٣].

سكتت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، ونفح فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام، فاتجهت بحملها بعيداً عن قومها، وكان حملها طبيعياً كما تحمل سائر النساء، حملته إلى مكان بعيد عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقى بيت لحم، حيث ولد المسيح عليه السلام.

كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء، وفيه قال صلى الله عليه وسلم (ثم قال: انزل فصل، فنزلت فصلิต، فقال أتدرى أين صليت؟ صليت بيت لحم؛ حيث ولد عيسى عليه السلام) ^(١).

وفي صلاته صلى الله عليه وسلم في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادة النبي الله عيسى تكريماً لهذا النبي.

والظاهر المتبدّل من سياق الآيات أنها

^(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة، رقم ٤٤٦.

قال تعالى **﴿وَمَرِيمَ ابْنَتْ عَمْرَنَةَ الَّتِي أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُشِّيْهَ وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْتَدِّيْنَ﴾** ^(٢) [التحرير: ١٢].

فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيَّاً مَّنْسِيَّا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئاً، قال ابن عباس قال ذلك استحياء من الناس» ^(٢).

وفي حاشية الجمل على الجلالين «تمنت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشارارة الملائكة لها بعيسي عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: ثلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإن فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها ولدتها آية للعالمين» ^(٣).

قال تعالى: ﴿فَنَادَهَا مِنْ تَحْنَانًا أَلَا تَخْرُنِي قد جَعَلَ رَبِّكَ تَحْنَكَ سَرِيًّا﴾ ^(٤) وَهُزِيَ إِلَيْكَ بِمَنْعِنَ النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ^(٥) فَكُلِّي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنَتِي فَإِمَّا تَرَنِي مِنَ الْبَشَرِ أَهْدَا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِرَحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلِّمَ الْيَوْمَ إِلَيْسِيًا﴾ ^(٦) [مرثي: ٢٤-٢٦].

في غمرة الآلام التي ألمت بمرثيم رضي الله عنها، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض ومن مخاطره، والوحدة والوحشة والتربّل لما

وضعته في المكان القصبي الذي انتبذ إليه أو قريباً منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً ^(١).

قال تعالى: ﴿فَاجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى يَنْجَعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيَّاً مَّنْسِيَّا﴾ ^(٧).

ومعنى: ﴿فَاجَأَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: أجأها المخاض وأضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جهد وإعياء وألام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذي لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أستندت ظهرها إليه.

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيَّاً مَّنْسِيَّا﴾ تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسياً منسياً، أي: شيئاً لا يعتد به ولا يؤبه له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتعددة: فيقول ابن كثير في التفسير «فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبيع عندهم

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/١١٦.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/٥٧.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/١١.

ولعل إيثار تسميتها هنا «سريا» لما فيه من تسريعة لقلبها، وترويج عن نفسها وتسلية لها وهي في هذا الكرب والمحنّة.

والسياق يدل على ذلك، قال تعالى: **﴿فَنَكِلُّ وَأَشْرُقُ وَقَرِئَ عَيْنَا﴾** فدل الأكل على وجود الرطب، ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: **﴿سَرِيَا﴾**: الجدول، نهر صغير بالسريانية^(٣).

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهر كرامة لها، وإرهاصاً ليعيسى عليه السلام، وتسلية لقلبها.

﴿وَهَرَى إِلَيْكَ بِمِنْعَنِ النَّخْلَةِ شَوْقَتْ عَلَيْكَ رُطْبَأْ جَنِيَا﴾ [مريم: ٢٥]. نعمة أخرى ونفعـة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتـيها رزقـها من الرطب وهي في مكانـها، بقدرة الله عز وجل ولطفـه ورحمـته، وكانت تلك النخلـة يابـسة فاخـضرـت وأثـمرـت في غـير أوانـها؛ كرـامة لمـريم وتـسلـية لـقلـبـها وزـيـادـة في يـقـينـها، وإـظـهـارـاً لـقـدرـة الله عـز وـجل وـعـجـيب صـنـعـه^(٤).

العظيم، ابن كثير ٣/١٧، ومفاتيح الغيب، الرازـي ٢١/٢٠٥.

(٣) أخرجه البخارـي في صحيحـه معلـقاً، كتاب أحـادـيـث الـأـنـبـيـاءـ، بـاب قولـ اللهـ: (واذـكرـ فيـ الكتابـ مـريمـ)، ٤/٦٥ـ.

(٤) انظرـ: قـصـصـ الـأـنـبـيـاءـ، ابنـ كـثـيرـ صـ٥٦ـ.

يتـنظـرـهاـ منـ قـومـهاـ حـينـ يـرـونـ هـذـاـ الـوـلـيدـ، فـيـ غـمـرةـ هـذـهـ الـآـلـامـ الـحـسـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ تـغـمـرـهاـ رـحـمـةـ اللهـ تـعـالـىـ، فـيـتـحـولـ العـسـرـ إـلـىـ يـسـرـ وـالـضـيقـ إـلـىـ سـعـةـ، وـالـحـزـنـ وـالـقـلـقـ إـلـىـ فـرـحـ وـاسـتـبـشـارـ وـطـمـائـنـيـةـ، وـيـوـلدـ عـيـسـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ جـوـّـ منـ الـكـرـامـاتـ، وـيـنـطقـهـ^(١) المـولـىـ عـزـ وـجلـ.

وقـالـ لهاـ كـماـ أـخـبـرـ القرآنـ: **﴿فَنـادـهـاـ مـنـ تـحـنـيـاـ الـأـخـرـيـنـ قـدـ جـعـلـ رـبـكـ تـحـنـيـ سـرـيـاـ﴾**، أـنـطـقـ اللهـ عـيـسـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ تـسلـيـةـ لأـمـهـ وـتـشـيـتاـ لـقـلـبـهاـ، وـتـمـهـيـداـ لـهـاـ إـلـىـ أـنـهـ كـماـ نـطـقـ أـمـامـهاـ وـحـدـهـاـ فـسـوـفـ يـنـطـقـ أـمـامـ قـوـمـهاـ بـيرـاءـتهاـ **﴿فـأـشـارـتـ إـلـيـهـ قـاتـلـاـ كـيـفـ تـكـلـمـ مـنـ كـانـ فـيـ الـمـهـدـ صـيـباـ﴾** **﴿فـالـإـلـيـ قـدـ عـبـدـ اللـهـ مـاـ تـشـيـقـ الـكـتـبـ وـجـعـلـيـ تـيـباـ﴾** [مرـيمـ: ٢٩ـ ٣٠ـ].

وـلـقـدـ أـجـرـىـ اللهـ هـذـهـ الـمعـجزـةـ أـمـامـهاـ وـحـدـهـاـ، ثـمـ أـجـرـاهـاـ بـعـدـ ذـلـكـ أـمـامـ قـوـمـهاـ، كـمـ أـجـرـىـ اللهـ مـعـجزـةـ قـلـبـ العـصـاـ إـلـىـ حـيـةـ أـمـامـ مـوسـىـ وـحـدـهـ، قـبـلـ أـنـ يـجـرـيـهاـ أـمـامـ فـرـعـونـ وـمـلـئـهـ؛ تـشـيـتاـ لـمـوسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ وـإـعـادـاـ لـهـ لـمـوـاجـهـهـ هـذـاـ الـمـوـقـفـ.

﴿قـدـ جـعـلـ رـبـكـ تـحـنـيـ سـرـيـاـ﴾ السـريـ: قـيلـ: هوـ الجـدـولـ - النـهـرـ الصـغـيرـ الـجـارـيـ - سـمـيـ بـذـلـكـ لـأـنـ المـاءـ يـسـرـيـ فـيـهـ، وـعـلـىـ هـذـاـ القـوـلـ **عـامـةـ الـمـفـسـرـيـنـ**^(٢).

(١) مـفـاتـيـحـ الـغـيـبـ، الرـازـيـ ٢١/٢٠٤ـ.

(٢) انـظـرـ: جـامـعـ الـبـيـانـ، الطـبـرـيـ ١٦/٥٤ـ، زـادـ الـمـسـيـرـ، ابنـ الـجـوزـيـ ٥/٢٢١ـ، تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ

اتهام اليهود لمريم

قال تعالى: ﴿فَاتَتْ يَدُهُ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ
قَالُوا يَنْعِرُهُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَارِيًّا﴾^(١٧) **ياتَّخَذَتْ**
هُنُّوْنَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْوَ وَمَا كَانَ أَمْكَ بِعِيًّا
﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَيْيَا﴾^(١٨) [مريم: ٢٧-٢٩].

قال القرطبي: «لما اطمأنَتْ لما رأتَ من الآيات، وعلمتَ أنَّ اللهَ تعالى سبَّينَ عذرها، أنتَ به تحمله من المكان القصيِّ الذي كانت اتبَّدتْ فيه»^(١).

والفاء هنا في (فَاتَتْ) تفيد التعميب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها **فَحَمَلَتْهُ فَانْبَذَتْ** **يَدَهُ مَكَانًا فَصَيْيَا** **وَفِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ** **فَاتَتْ** **يَدَهُ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ**.

ففي الموضع الأول نرى مريم البتوء رضي الله عنها تسارع بحملها بعيداً عن قومها، خوفاً من نقوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السُّوءِ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل.

وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به، واطمأن قلبها إليه، وأنشرح صدرها بالكرامات التي وقعت لها، وامتلاً قلبها يقيناً، وتبدل خوفها أمّا، وحزنها سروراً وضعفها قوة وعزّة وترفعاً

﴿فَكُلِّي وَأَشْرِفْ وَقَرِّي عَيْنَكَ﴾، كلي من ذلك الرطب الجنبي واعشربي من ذلك الماء العذب، **﴿وَقَرِّي عَيْنَكَ﴾** أي: وطبيعي نفساً بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهتئي بالآية المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿فَإِمَّا تَرَوْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَادًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(١٩) [مريم: ٢٦] أمرت بالصوم عن الكلام لأمرتين:

أحدهما: أنَّ كلامَ عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى.

والثاني: أنَّ السكوت عن جدال السفهاء أصول للعرض وأناسب لحياتها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٩/١١.

أَمْرَأَسُو وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغَيْرِهِ ﴿٢٨﴾ [مريم ٢٨].
وموسى قبل عيسى بذلك وكذا، فلما
قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون
بأنبيائهم والصالحين قبلهم) ﴿١﴾.

والظاهر أن هذه الآية العجيبة التي بهت
اليهود لم تزجر كثيراً منهم ولم تكتفهم عن
التمادي في الافتراء والكذب على مريم
البتول، فكان هذا من أسباب غضب الله
عليهم وعقوتهم الدنيوية مع ما يتظار لهم
يوم القيمة، وأي ذنب بعد الكفر بالله،
والافتراء على أنبيائه الكرام الأخيار، وألهم
الطيبين الأبرار، سيمما من برأها الله تعالى
بآية مشاهدة محسوسة، وسجل براءتها في
كتابه الكريم.

قال تعالى: **﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّنْثَقَمَهُ وَكُفَّرُهُمْ بِيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَعْتَدُ حَقٌّ وَقُوَّلُهُمْ قُلُوْنَا غَلَقَ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفَّرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** ﴿١٥٥﴾ وَقُوَّلُهُمْ وَقُلُوْنُهُمْ عَلَى مَرِيمَ بِهَتَنَّا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ [النساء: ١٥٥ -

١٥٦].

فتلك صفحات مطوية في تاريخ اليهود
وجرائم مسجلة عليهم، منها: نقض المواثيق
مع جلالها، والجحد بآيات الله مع جلالها،
وقتلهم الأنبياء خيرة الخلق، بدون جريرة ولا
(١) أخرى مسلم في صحيحه، كتاب الأداب،
باب النهي عن التكذيب بأبي القاسم، وبيان ما
يستحب من الأسماء، رقم ٢١٣٥.

وتحدياً وتعالياً على الباطل وأهله، فجاءت
إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل
ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها
الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام، جاءت
بنفس راضية هائلة بهذه الهدية التي منحها
لها رب البرية.

لقد أصبحت مريم أمّاً لنبي، وأي شرف
لامّ أعظم من ذلك، وأي رجاء أعظم من
نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها
تعرف سلفاً موقف قومها، الذين يقابلون
الأيات بالإنكار والجحود، والإنعمات
بالحسد والحقد، وقد صدق ظنها فيهم
حين رأواها فقالوا دون تفكير أو تمهل - كما
أخبر القرآن الكريم: **﴿فَالْأُولَاءِ يَمْرِئُمْ لَقَدْ جَنَّتْ شَيْئَكَافِرَنَا﴾**: أي: شيناً فظيعاً منكراً عجيباً.

﴿يَتَأْخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرَأَ سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغَيْرِهِ ﴿٢٩﴾﴾: بعد أن اتهموها،
وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقوله
على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك
والتحريض.

قالوا: **﴿يَتَأْخَذُ هَرُونَ﴾** تشبيهاً لها:
بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام
في تقواه وصلاحه وحياته، وكانوا يسمون
وينعتون بأنبيائهم عن المغيرة بن شعبة رضي
الله عنه.

قال: لما قدمت نجران سالوني: فقالوا:
إنكم تقرؤون: **﴿يَتَأْخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ**

وراهبة المحراب !

إنه ابتلاء عظيم أن يرمي الغوغاء ذات الطهر والنقاء، وهل أشد على الحرائر العفيات، المحسنات الغافلات من الاتهام في أغلى ما يملكون.

كلام المسيح عليه السلام في المهد تبرئة لأمه مما اتهمت به:

قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَاتُلُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ﴿١﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ عَائِشَةِ الْكِتَبِ وَجَعَلَنِي بَيْتًا﴾ ﴿٢﴾ وَجَعَلَنِي مَيَارًا كَمَا نَيَّ مَا كَثُنَّ وَأَوْصَنَّ يَالصَّلَوةِ وَالرَّكْوَةِ مَا دَمَتْ حَيَا﴾ ﴿٣﴾ وَبَرَّأْ يَوْمَ الْحِقَّةِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَارًا شَقِيقًا﴾ ﴿٤﴾ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ وُلْدَتْ وَيَوْمَ أَمْوَاثَ وَيَوْمَ أَبْعَثُ حَيَا﴾ ﴿٥﴾

نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيه لله تعالى عن الصاحبة والولد، ورد على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

قال الرازى في هذا المقام: «إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مریم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبوديته لله كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم

حق. ومن كفرهم الباوه وظلمهم العظيم افتراؤهم على خير نساء العالمين الصديقة العابدة التقية الطاهرة مریم بنت عمران التي نبتت من أرومة مجيد طاب غراسها، ودرجت في بيت صلاح وتقى شعّت أنواره، وتقبلها ربها بأحسن قبول ظهرت برకاته وجلت آثاره، وكان كافلها ومعلمها نبیٌّ كريمٌ مجلٌّ، وانقطعت للعبادة والتبتل، ورغم ذلك فقد اتهمها اليهود في عرضها، وغمزوها في عفافها، وهي الصديقة التي بلغت معالي الرتب والدرجات، الطاهرة التي برأها ربها بأعظم الآيات وأبلغ البيانات، فأطلق ولدها في المهد، وشهد لها بالطهر والمجد، وفند كذب اليهود وبهتانهم الذي ليس له حد.

وتكرر الكفر منهم لأنه كفرٌ بعد كفرٍ بعد كفر حجبٌ كثيفة وغيوم قاتمة وقلوبٌ تراكم عليها الظلم، كفروا بموسى ثم كفروا بعيسى، فقد دخلوا إلى الكفر من أبوابٍ كثيرة، فقد كفروا بالأنبياء بل وقتلواهم، وشنعوا على مریم وتمروا على ولدها عيسى عليه السلام.

وعطف البهتان على الكفر دليلاً على شناعته وقبحه، ووصفه بالعظيم لتهويله، إذ أي بهتان أعظم من رمي سيدة نساء العالمين الصديقة العابدة سليلة بيت الطهر والعفاف، ربيبة أهل التقى والصلاح، نذيرة العبادة،

لأنه سيقع ياذن الله ^(٣).

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَوَةِ مَا دُعْتُ حَيَّاً﴾

أي: أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاحة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممثل لوصية ربِّي، عامل عليها منفذ لها.

﴿وَبَرَأْ بِولَدِي﴾ أي: جعلني المولى عز

وجل بارًا بأمي، رفيقاً بها، محسناً إليها، وفي ذلك بيان لترفاتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، ورد على ما جاء في الأنجليل من ادعاء جفوته وغلوظته في معاملتها وتنكره لها ونفوره منها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَارًا شَقِيقًا﴾ أي: ولم

يجعلني متجرِّباً متكتِّبراً على الحق والخلق بل جعلني بِرًا رحيمًا، عطوفًا كريماً، متواضعاً للحق، مطيناً لأوامر الله عز وجل. وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ الْدِينِ وَيَوْمِ الْمُؤْمِنِ﴾

ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/٢٢١.

بإزاله التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزاله التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى ^(١).

﴿قَالَ إِنِّي عبدُ اللَّهِ مَا تَنَقَّلَ الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا﴾ فنطق عليه السلام أول ما نطق بغایة وجوده وكمال إنسانيته في عبوديته لله تعالى، وأجل نعم الله عليه الكتاب والنبوة، وهي اصطفاء خاصٌ، ومتزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله، فنبوته عليه السلام دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء من أطهر الناس نسبة، والمراد بالكتاب الإنجيل الذي أنزله الله عليه، أو التوراة التي علمه الله إياها.

﴿وَجَعَلَنِي مَبَارِكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ نفاعاً

حيث كنت، وقيل: معلماً للخير، وقيل: ثابتًا في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكانه قال جعلني في جميع الأشياء غالباً موقعاً إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء ^(٢)، والمقصود من كلامه: باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق

(١) مفاتيح الغيب، الرازبي، ٢٠٩/٢١.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النسابوري، ٥٣/١٦.

مفاتيح الغيب، الرازبي، ٢١٤/٢١.

نبوة مريم عليها السلام

زعم بعض أهل العلم أن مريم عليها السلام نبية من الأنبياء، لأن الله عز وجل أوحى إليها، ومن الذين قالوا بهذا: الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، الذي عقد فصلاً في كتابه الفصل بعنوان (نبوة النساء): ادعى فيه ثبوت نبوة النساء ومن كلامه في ذلك: « جاء في القرآن أن الله عز وجل قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بمحض حق من الله تعالى، من ذلك تبشير الملائكة لأم إسحاق به. »

قال عز وجل: ﴿ وَأَرَأْتَهُمْ قَالِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرَتْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَأْهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٦١)

[هود: ٧١].

فهذا خطاب من ملك لغيرنبي بوجه من الوجه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم عليها السلام فخاطبها وقال لها: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لَا هُبَّ لَكِ غُلَمًا زَكِيَّاً ﴾ (١٩) [مريم: ١٩].

فهذه نبوة صحيحة بمحض صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وهكذا أم موسى أوحى الله تعالى إليها أن تلقى موسى في اليم، وأنه سوف يعيده، ويجعل له شأنًا. قال تعالى: ﴿ وَأَرْجَحَتَا إِلَيَّ أُمُّ مُوسَى أَنَّ أَرْضَهُ يُبَعَّدُ فَلَمَّا دَخَلَتْهُ فَأَقْبَلَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ فَإِنَّا رَادُونَا إِلَيْكَ وَجَاهَتُهُ مِنْ

بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحق لا يفتقر لغيره، ولا يحتاج إلى من سواه.

الْمَرْسَلِينَ ﴿٧﴾ [القصص: ٧].

ومن القائلين بنبوة مريم أيضا الإمام القرطبي في تفسيره حيث يقول: «والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك، كما أوحى إلى سائر الأنبياء».^(٢)

وقال القرطبي إن مريم أفضل النساء على الإطلاق؛ لأنها نبية والنبي أفضل من الوالي، فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقاً.^(٣)

وقال أيضاً: ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما رأى جبريل عليه السلام في صورة بشرية حين سُئلَه عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر، وعليه الأكثر. والله أعلم.^(٤)
وقال في تفسير قوله تعالى **﴿وَأَمْمَةٌ صَدِيقَةٌ﴾** «يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام».^(٥)

والصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية وإنما هي صديقة، والدليل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا**

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والتحل، ابن حزم ١٧ / ٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨٣ / ٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ٤ / ٨٤.

(٥) المصدر السابق.

يَجَأُ لَهُنَّا فُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَنَلُوا أَهْلَ الْأَذْكَرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْلِمُونَ ﴿٧﴾، فهذا دليل صريح على أن النبوة في الرجال دون النساء.

٢. أن مريم وأم إسحاق وأم موسى لم يأت في القرآن تصريح بنبوتهن ضمن من صرحت الله بنبوتهم.

٣. أن كلام الملائكة لمريم عليها السلام لا يعد دليلاً على ثبوت نبوتها، إذ النبوة هي وحي من الله تعالى لنبي من الأنبياء بكيفية مخصوصة، وبواسطة الملك، كما أن كلام جبريل لها لم يكن برسالة أو نبوة بمفهومها الشرعي وإنما كان بأمر من الله تعالى وبإشارة منه سبحانه وكلام الملائكة لأم إسحاق لم يكن إلا بشارة لها، والحكمة في الكلام المباشر أن البشرة تعظم في النفس بعظم المبشر بها.

٤. أن الإلهام كما يقع للأنبياء فقد يقع للأولياء، ويكون في حقهم كرامة وليس بمعجزة، والرؤيا الصالحة نوع من أنواع الوحي (الإلهامي) ولم يقل أحد أن كل من رأى رؤيا صالحة فهونبي.

٥. أن الوحي بمعنى الأعم: إعلام الله تعالى، جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ولم يقل أحد أنه نبوة.

ضلال بعض طوائف النصارى في مريم

بلغ غلو بعض طوائف النصارى في مريم إلى عبادتها والاستغاثة بها والتولّ بها والصلوة لها.

يقول ول ديوانت: «كانت تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التمجيل وقتذاك»^(١).

وفي موضع آخر يقول: بل إن العابد التقى في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلتجأ إلى مريم أكثر مما يلتجأ إلى الأب أو الإبن^(٢).

وفي موضع آخر يذكر «ذلك أن سيريل الكبير أساقفة الإسكندرية وصف في موعظة له شهيرة ألقاها في إفسس عام ٤٣١ مريم بكثير من العبارات التي كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها «إلهتهم الكبرى» أرتيميس - ديانا دلالة على حبهم إياها»^(٣).

وقد بين القرآن الكريم أنها عابدة قاتلة لله تعالى، مستسلمةً لقضائه راضيةً بحكمه، وأنها بلغت منازل الصديقين، بصدقها وأجتهادها في العبادة.

قال تعالى في سورة المائدة: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ**

قال تعالى: **﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَينَ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾** [فصلت: ١٢]. وقال تعالى: **﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى الْقَلْبِ أَنَّ أَفْيَنِي مِنَ الْجَبَالِ بَيْوَنًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمَا يَعْرِشُونَ﴾** [النحل: ٦٨]. ولم يقل أحد من العقلاة بنبوة الأرض والسماء ولا بنبوة النحل، إذ أن الوحي بمفهومه اللغوي العام أوسع من معناه الشرعي المخصوص: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بواسطة أو بغير واسطة.

٦. هذا ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة، وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصديقتها. قال تعالى: **﴿إِنَّ الْمَسِيحَ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولَ وَآمِنَةً صَدِيقَةً﴾** [المائدة: ٧٥].

(١) قصة الحضارة ٤٨٢/١.

(٢) المصدر السابق ٤٥٣/١١.

(٣) المصدر السابق ٤٤١/١٦.

وأقامه على سنتهم، وأمه صديقة عابدة، كانا يأكلان الطعام، وال الحاجة للطعام والشراب غريزة إنسانية، أما الإله فهو غني قوي، ليس كمثله شيء، فكيف يدعون أنه إله أو ابن إله ! فتأمل كيف يقيم الله الحجة عليهم من وجوه عديدة ثم هم يصرفون عن الحق، ويقلبون الحقائق ويقررون الأباطيل ! مع جلاء الآيات وتصريفها !

أَبْنَتْ مَرِيمَ قُلْ فَمَنْ يَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
إِنَّ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحَ أَبْنَتْ مَرِيمَ
وَأَمْمَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَيِّعًا وَلَوْ
مَلَكَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ .

فاليس عليه السلام بشر رسول، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولو أراد الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعا فلا يملك أحد من الخلق أمرا، وكل ما في السموات والأرض ملك لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضرا أراده الله، فضلا عن أن يدفع عن غيره ما حل به، وفي هذا رد لمن زعم ألوهية مريم أو أضفى عليها شيئا من الخصائص أو الصفات الإلهية.

﴿إِنَّ الْمَسِيحَ أَبْنُ مَرِيمَ إِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلَ وَأَمْمَهُ صَدِيقَةٌ
كَمَا يَأْكُلُونَ الْطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ
تُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ
يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

فبين الله تعالى القول الحق في المسيح عليه السلام وهو أنه بشر رسول، ونسبته لمريم، لأنه لا أب له، ولو كان له أب لنسب إليه، وإنما خلقه الله بلا أب لحكمة بالغة، تدل على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسي عليه السلام بشر رسول، شأنه شأن من سبقة من الرسل، أرسله الله على نهجهم

- رعاية الولد تبدأ مبكرة منذ أن يتحرك في أحشاء أمه بل تبدأ باختيار الأم الصالحة، قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: لقد أحسنت إليكم صغاراً، وأحسنت إليكم كباراً، وقبل أن تولدوا، قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ فقال: اخترت لكم أما صالحة^(٢).
- استحباب النذر ووجوب الوفاء به وبركته.
- حرص المؤمن على تقبل عمله، بتحري أسباب القبول.
- قول أم مریم: **﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾** أي: خالصاً لوجهك، مخلصاً لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: «إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشويه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى»^(٣)، وفي هذا منقبة لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها^(٤). وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيد يحول بين العبد وبين ربه، أما التحرر الذي يدعوه إليه أعداء الإنسانية فهو دعوة مشبوهة ودعوى زائفة

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٦ / ٤.

(٤) التحرير والتونير، ابن عاشور ٣ / ٢٣٢.

الدروس المستفادة من قصة مریم

- في تخصيص آل عمران بالذكر وعطف على آل إبراهيم وهم منهم اهتمام بهم وزيادة تشريف لهم وتوطئة للحديث عن أم مریم ومریم وعيسى عليه السلام.
- ضرب القرآن الكريم أمثلة رائعة للمرأة الصالحة، وصور بأبلغ بيان مشاهد وصوراً في حياة المرأة وهي في حملها وعند مخاضها وعن درعايتها لصغيرها، وهذا يدل على احتفاء القرآن بالأم ورعاية الإسلام للأمومة.

- قال الشيخ السعدي: « ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفباء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن ذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكتفى بذلك فضلاً»^(١).

- دور الأم في تربية الأبناء وبركة الدعاء للأبناء بالصلاح.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٨.

- والمرأة، وهي فروق كثيرة ومتعددة.
- ✿ تحري الأسماء الحسنة العذبة من حق الولد على أبيه، ومن أسباب البركة والصلاح.
 - ✿ في هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بيتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ولقد استجاب الله تعالى لها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال: ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها) ثم قال أبو هريرة: واقرعوا إن شتمتم **﴿وَرَبِّنِي أَعْيُدُهَا يُلَكَّ وَذَرِّنِهَا مِنَ الشَّيْطَنِ الرَّجِيمِ﴾** ^(٢).
 - ✿ حرص الآباء على تجنيب الذرية كل وساوس الشيطان ونزغاته.
 - ✿ الغراس الطيب في التربة الطيبة مع تعهده بالرعاية يثمر نبتاً طيباً مباركاً نافعاً.
 - ✿ رعاية الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وذرياتهم.
 - ✿ قال البقاعي: **«فَتَقْبَلَهَا»** جاء بصيغة التفعل مطابقة لقولها: (فتقبل)، وفيه ^(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ١٦٥ / ٤.
- وشعارات برقة خداعية، تعنى التحرر من كل فضيلة، والتمرغ في أوحال الرذيلة، وتحطيم القيم والأخلاق الكريمة والهجوم الشرس على دين الإسلام وتعاليمه القويمة.
- ✿ حسن التأدب مع الله تعالى في الدعاء والتتوسل بالعمل الصالح وباسم الله الحسن وصفاته العلى.
 - ✿ الصدق مع الله تعالى وإمضاء العزم وعلو الهمة.
 - ✿ الحرص على صلاح الأولاد ونفعهم لدينهم وقومهم.
 - ✿ بيان أهمية العامل الوراثي وأثره الفعال في تكوين الشخصية والطبع.
 - ✿ قوله تعالى: **«وَلَيَسَ الَّذِكَرُ كَالْأَنْثَى»** إشارةً لكون «الأثنى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي، ولا في تركيبها النفسي، ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها تختلف عن وظيفة الذكر، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسؤوليات واختلاف في الحقوق والواجبات، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء: فليسو بينهما في التركيب الجسمي والنفسي **أولاً !** ^(٣). وقد أثبت العلم أن هناك فروقاً كثيرة عضوية ونفسية بين الرجل
-
- (١) الأساس في التفسير، سعيد حوى / ٢٧٦٢

والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والصلاح.

● حرص الأخبار من بنى إسرائيل على كفالة مريم وتنافسهم على ذلك دليل حرصهم على نيل الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد كريمة وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.

● قال أبو حيان: «(وَكُلُّمَا): تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتقادمه لأحوالها»^(٣).

● اليتيم ليس في حاجة للطعام والشرب والملبس والمأوى فحسب بل في حاجة إلى رعاية نفسية وإلى رعاية تربوية وعلمية وقد ظهر ذلك في كفالة ذكرياء عليه السلام لمريم.

● قال الإمام القرطبي رحمة الله: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة وهي أصل في شرعتنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وطمئن قلوبهم وترتفع الضنة عنمن يتولى قسمتهم

إشعار بتدرج وتطور وتكرر، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تطور إليه، من حيث لم يكن فا قبل مني فلم تكن إجابته: فقبلها، فيكون إعطاء واحداً منقطعاً عن التواصل والتتابع، فلا تزال بركة تحريرها متجلدةً لها في نفسها وعائداً بركته على أمها حتى ترقى»^(١).

● وفي ذكر الفعل من (أ فعل) في قوله: «وَأَنْبَتَهَا» والاسم من (فعل) في قوله: «بَنَاتَا حَسَنَا» إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكميل في الإنماء والواقع حسن التأثير وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسناً. انتهى^(٢).

● لزوم مريم الصديقة للمحراب دليل كمالها وعلو همتها وصدقها مع الله تعالى.

● رد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوة خلقه مع فساد اعتقادهم وسوء أخلاقهم وعدائهم للحق ومخالفتهم لما جاء به الأنبياء عليه السلام.

● توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء

(١) نظم الدرر ٢/٧٢.

(٢) المصدر السابق.

- ✿ أمر القرآن بذكر مريم الصديقة ومدارسة قصتها العجيبة ومآثرها الماجدة، فلقد ضربت أروع الأمثلة في الطهر والعفاف والعبادة والصبر والثبات والفصاحة والمحصافة والحياء والخشمة واليقين والمعرفة قال السعدي رحمه الله: « وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض وغاربيها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل » ^(٣).
- ✿ حسن بدبيهة مريم وحسن تصرفها وحكمتها وروزانتها ومحبانتها وثباتها وأدبها وحسن ظنها وثقتها بربها، تجلى ذلك حينما دخل عليها جبريل عليه السلام خلوتها فقالت كلماتها القيمة.
- ✿ قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَّابٌ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هُنَّا يُنَزَّلُكُمْ مَا يَأْتِي لِلنَّاسِ ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لثلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدارها ومسبيها ^(٤).
- ✿ قال أبو حيان: « ودل على عفافها

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩١.

(٤) المصدر السابق.

ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسم من جنس واحد؛ إتباعاً لكتاب والسنة » ^(١).

✿ وقع الكرامات للأولياء؛ فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها، والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة، وهي مأخوذة من الكرم والإكرام؛ لأنها كرم وجود من المولى عز وجل، وإكرام لصاحبتها وتكريم له، قال الإمام الطحاوي رحمه الله: « ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات في روایاتهم ». ^(٢)

✿ إعداد الله تعالى لأنبئائه وأوليائه لما يهتئ لهم له من جلالات الأمور.

✿ يجوز تمني الموت عند وقوع الفتنة واستداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان.

✿ بركة رعاية الصالحين وتفقد أحوالهم.
✿ اصطفاء مريم على سائر نساء العالمين منقبة لها لم ترد في الأنجليل المحرفة، حيث تفرد القرآن بذكر أمور كثيرة ومناقب عديدة للصادقة مريم لم ترد في كتب النصارى.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤ / ٨٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، شرح ابن أبي العز ص ٤٩٥.

- مما يدل على جفائه.
- التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، ومريم رضي الله عنها كان رزقها يأتيها من عند الله، ولما جاءت ساعة المخاض أمرها الله عز وجل أن تهز النخلة أخذًا بالأسباب.
- قال ابن عطية: «وقد استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتمما فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمرت مريم بهز الجذع لترى آية وكانت الآية تكون بأن لا تهز هي»^(٢).
- أكل مريم رحمها الله من الرطب إشارة إلى ما أثبتته الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء.
- وردت قصة مريم في سورة تحمل اسمها وأخرى تحمل اسم أبيها عمران، وسورة الأنبياء، وسورة التحرير التي استفتتحت بذكر أمهات المؤمنين، وختمت بذكر سيدة نساء العالمين آسية ومريم، وذكرها في سورة الأنبياء في سياق رعاية الله تعالى لأنبيائه عطفا على ولدها المسيح عليه السلام بيان لمكانة مريم في القرآن، وعظمة القرآن ورقيته وتسامح الإسلام وشموله وعالميته، وأن القرآن امتداد للكتب

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/١٤.

- وورعها أنها تعودت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسر لعفتها^(١).
- آلام المخاض وتأثيره البدني والنفسى على المرأة، و حاجتها إلى لطف وأنس وهي في أصعب الأوقات.
- يأتي الفرج بعد اشتداد الكرب ويأتي اللطف وتهب نسائم الرحمات عند الابتلاءات.
- الإعراض عن السفهاء ومجانبهم، وكراهة مجاراتهم.
- الابتلاء سنة الله تعالى في الأنبياء والأوصياء.
- الله تعالى يتولى الدفاع عن أنبيائه وأوليائه.
- الافتراء وسوء الظن بالأنبياء والصالحين من طباع اليهود والمنافقين.
- بلغ قوم مريم من السفاهة مبلغًا عظيمًا حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بما هي بريئة منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم.
- بر عيسى عليه السلام بأمه دليل طهرها وصدقها، ورد على ما ورد في الأنجليل

(١) البحر المحيط ٦/١٣٢.

السابقة المتزلة، ونبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم حلقة أخيرة في سلسلة الأنبياء عليهم السلام وامتداد لهم.

• التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلاً، ومهما بلغ مقامه عند الله، وفي ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين قالوا بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة.

• عن كلام المسيح في المهد قال الألوسي: «وذكر عبوديته لله تعالى أولاً: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفي جميع ما قال تنبئه على براءة أمه لدلاته على الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفى ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل: لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة»^(١).

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، عيسى عليه السلام، النساء

(١) روح المعانى، الألوسي ٨٩/١٦.